الفصل الحادى عشر

البناء المنهجى
لنظرية ماكس فيبر

المحتويات

مقدمة .

أولا : فيبر والحوار حول مكانة علم الاجتماع .

ثانيا : فيبر والتأليف بين الذاتية والموضوعية .

ثالثا : السببية عند ماكس فيبر ، ملامحها وأنماطها .

رابعا : النموذج المثالى بناؤه ووظائفه .

مقدمة

نستطيع القول بأن قضايا البناء المنهجى لنظرية ماكس فيبر قد شكلت نقله هامة فى تاريخ النظرية الاجتماعية خاصة وعلم الاجتماع بصورة عامة . ويمكن القول بأن المنهجية الخاصة بماكس فيبر كانت نتيجة لفاعلية عاملين أساسيين ، العامل الأول يتمثل فى أن الفكر الوضعى ، الذى أصبح أساساً للمنهج فى علم الاجتماع من خلال سان سيمون وأوجست مونت وإميل دوركيم ، قد اتسع الى مداه الطبيعى ، حيث أصبح منهج العلوم الطبيعية هو المنهج الذى تبنته العلوم الاجتماعية . بيد أنه برغم المدى الذي بلغه تطبيق هذا المنهج فى اطار العلوم الاجتماعية ، فقد بدأت تظهر بعض الانتقادات المتعلقة بمدى المماثلة بين مادة العلوم الطبيعية ومادة العلوم الانسانية ، وارتباطا بذلك ، مدى أهمية الوصول الى قوانين تكون قادرة على تحديد طبيعة التفاعل فى مجال الظواهر الأنسانية وضبطها .

ويتعلق العامل الثانى بطبيعة الفكر المثالى ، وهو الفكر الذى عايش الفكر الوضعى ، باعتبار كونهما معا نتاجاً لفكر التنوير . حيث بدأ الفكر المثالى بطرح نفسه قويا من خلال الماركسية تارة ، ومن خلال ماكس فيبر تارة أخرى ، واذا كان للفكر المثالى تطوراته النظرية بشأن الواقع ، فإن له تأكيداته وقناعاته المنهجية بشأن دراسة هذا الواقع . اذ يؤكد هذا التيار على تميز الظواهر الانسانية عن الظواهر الطبيعية ، باعتبار ان الظواهر الانسانية هى نتاجاً لفاعلية سلوكيات بشرية لها معانى ومقاصد ، ومن الضرورى ان نسعى الى فهمها ، وهو الأمر الذى يتطلب منا التأكيد على العنصر الذاتى فى الفهم ليصبح تفهما لمعانى هذه الظواهر ، ومحاولة تفاصيلها الدقيقة باعتبارها مفرداً قبل ان تخضع لأى اطراد .

بالنظر الى هذين العاملين نجد ان ماكس فيبر قد وقف موقف وسطا بين المنهجية الوضعية والمنهجية المثالية ، واستنادا الى هذا المنطق ، وفى محاولة الوصول الى أكثر المنهجيات ملائمة لعلم الاجتماع ، ولطبيعة المادة التى تشكل نطاق فاعلية هذا العلم . فى هذا الاطار نجد ان ماكس فيبر قد قدم اسهامات عديدة سواء فيما يتعلق بمكانة علم الاجتماع بين العلوم أو فى طبيعة تداخل الذاتية والموضوعية فى ادراك الواقعة الاجتماعية ، أو فى تأكيده على السببية الجزئية وليست الكلية فقط ، ثم فى اسهاماته العقلية البارزة والمتمثلة فى صياغة النماذج المثالية ، كوسائل قياسية وتفسيرية تيسر مهمة الباحث فى علم الاجتماع ، وهى القضايا التى سوف نتعرض لها بالتحليل فى الصفحات التالية .

أولا : فيبر والحوار حول مكانة علم الاجتماع .

فى مناقشة لقضية تصنيف العلوم ومكانة علم الاجتماع تأثر ماكس فيبر الى حد كبير بمنجزات العلوم الطبيعية التى تجسدت حوله والتى تتمثل فى تعمق الثورة الصناعية وانتشار المناخ العقلانى فى التفكير . ومن ثم وجدنا فى كتاباته اهتماما بالعلم والعقلانية المستندة اليه . وهو فى ذلك مثل نيشته يعتقد ان العلم يستطيع ان يساعد البشر بالوسائل التى يتيحها وليس بالغايات . ذلك لأن العلم لايستطيع ان يدلنا على القيم الحقيقية True Values ، ومن ثم فالصراع بين القيم ، أو بين الآلهة كما يحلو له التعبير بذلك ، مسألة حتمية وبخاصة فى المجتمعات الحديثة التى تتسم بالتعقيد . هذا بالاضافة الى أنه من المستحيل ترتيب القيم العامة من خلال العلم بالنظر الى مقياس شامل متفق عليه (٨١) . فى اطار ذلك فان كل مايستطيع العلم ان يمدنا به هو الوضوح . وفى حالة العلم الاجتماعى ، الوضوح فيما يتعلق بسلوكنا من حيث دوافعه وغاياته ونتائجه ، ذلك لأن العلم يساعد على تبصر طبيعة التوجيه القيمى لأفعال البشر ، وأنماط القيم التى ينبغى عليهم اعتناقها . هذا بالاضافة الى أنه يساعد على تبصر وسائل تحقيق قيم معينة ، وتحديد تكاليف نتائج ذلك بالنسبة لقيم أخرى (٨٢) .

يعنى ذلك ان علوم الثقافة – التاريخ وعلم الاجتماع – تعمل على فهم الانتاج الانسانى الذى يخلق القيم ، أو الذى يتحدد بالنظر الى القيم . فى اطار ذلك فانه ينبغى أن يقال ان العلم ماهو إلا جهد عقلانى يتحدد هدفه الرئيسى فى الوصول الى أحكام تتعلق بالحقيقة ذات الصدق الشامل (٨٣) . فهدف العالم اذن هو الوصول الى قضايا تتعلق بالحقيقة أو الوصول الى بعض العلاقات السببية ، أو بعض التفسيرات الفعالة ذات الصدق الشامل . وبهذا المعنى يعتبر البحث العلمى مثالا للسلوك العقلانى بالنظر الى الهدف مادام هذا الهدف يعتبر حقيقة ذات صدق شامل . غير ان هذا الهدف فى ذاته يتحدد بواسطة حكم قيمى أعنى ان قيمة الصدق تتضح أو تتكشف بواسطة البراهين والحقائق ذات الصدق الشامل . بذلك يعتبر السلوك العلمى جمعا بين الفعل العقلانى بالنظر الى الهدف والفعل العقلانى بالنظر الى القيمة . فالعلم كما يدركه فيبر يعتبر أحد جوانب عملية الترشيد المميزة للمجتمعات الغربية الحديثة . بالاضافة الى ذلك نجد ان فيبر يؤكد ان العلوم التاريخية والسوسيولوجية تمثل فى أيامنا هذه ظاهرة تاريخية فريدة ، حيث لم يسبق ذلك جهد فكرى معادل لهذا الادراك العقلانى لتطور المجتمعات وأدائها (٨٤) . وبعد ان يفرغ فيبر من توضيح ماهية العلم ، وأهميته المحورية فى هذه المرحلة ، نجده يوضح ان الجهد العلمى يتميز بالخصائص الرئيسية التالية :

١ – ان يعتبر نقص العلم وعدم اكتماله Incompleteness من الخواص الجوهرية للعلم الحديث . فليس هناك غريب على أسلوب ماكس فيبر فى التفكير من تلك الصورة المحببة الى أوجست كونت . والتى تتعلق بالعلم الذى امتلك كل ماهو أساسى ، العلم الذى تمكن من تأسيس نسق أساسى مغلق يتكون من القوانين الأساسية المحددة . ثم يؤكد ماكس فيبر ان مفهوم الماضى عن العلم يشير الى أنه عبارة عن نسق كامل بمعنى ما ، يطمح الى ادراك مبادئ الحقيقة الواقعية أو القوانين الأساسية للوجود . أما العلم من وجهة نظر ماكس فيبر فيتميز بأنه بطبيعته فى حالة تطور ونمو دائم ، ومن ثم فلا صلة له بالقضايا المتعلقة بالمعانى الجوهرية للظواهر ، ذلك ان العلم يعمل دائبا نحو هدف لامتناه أبدا ، وتتجدد تساؤلاته بشأن موضوع بحثه بلا نهاية وتنطوى خاصية نقص العلم وعدم اكتماله هذه على معنين : المعنى الأول ينطبق على العلم طبيعيا كان أو ثقافيا ، ذلك لأن المعرفة العلمية عبارة عن غزو Conquestدائم لا نهاية له أبدا ، فالعلم هو نموه أو تطوره الذاتى . أما المعنى الثانى لعدم اكتمال العلم فينطبق على علوم الحقيقة الانسانية فقط ، أعنى على الثقافة والتاريخ . حيث تخضع المعرفة فى هذا الاطار للتساؤلات التى قد يطرحها الباحث بشأن الحقيقة . غير أنه كلما تقدم التاريخ فان عالم الاجتماع أو المؤرخ يجد نفسه يطرح تساؤلات جديدة بشأن الحقيقة فى ماضيها وحاضرها . وبتعبير ماكس فيبر فانه من الممكن اكتمال التاريخ وعلم الاجتماع اذا اكتمل التطور الانسانى وتحددت له نهايته (٨٥) .

٢ – وتعتبر الموضوعية هى الخاصية الثانية للعلم . حيث تتحقق الموضوعية عن طريق صدق النتائج العلمية وثباتها بالنسبة لكل هؤلاء الذين يهتمون بالصدق العلمى فيما يتعلق بالواقعة موضع الاهتمام والدراسة ، وثانيا برفض أحكام القيمة . فالعلم قد يدرس أو يلاحظ الدجال Charltan ، مثلما يدرس ويلاحظ الطبيب الحقيقى . يدرس أو يلاحظ الانسان الديماجوجى ، مثلما يلاحظ الانسان العظيم الذى ينجز أفعالا خالدة ، بنفس الحياد الموضوعى والانفصال عن الموضوع موضع الدراسة (٨٦) . ولتحقيق الموضوعية نجد ان فيبر يترسم طريقا منهجيا متدرجا يبدؤه بداية ذاتية . حيث يحاول الباحث تعقل دينامية حقيقة أو ظاهرة معينة عن طريق محاولة الامساك بمعناها الجوهرى . ثم يتدرج من ذلك ، بالنظر الى جمع من المحكات المنهجية ، حتى يستحيل الادراك الذاتى الفردى الى فهم علمى موضوعى له صدقه وثباته الشامل – عن طريق مجموعة من الاجراءات

المنهجية التى تيسر الادراك الموضوعى كالاستعانة بالاطار النظرى فى الاقتراب من الحقيقة وانتقاء عناصرها الجوهرية . ثم المقارنة المستندة لى النموذج المثالى كاجراء قياسى يهدف الى تحقيق أكبر قدر من الموضوعية (٨٧) .

٣ – وتعتبر النسبية الخاصية الثالثة المميزة للعلم – وتعنى النسبية بالنسبة له تنوع العوامل والأسباب الجوهرية ، وفقا لطبيعة السياق والموضوع موضع الدراسة – وتعنى أيضا الارتباط بالاحتمالية على حساب الحتمية المطلقة التى قد تعزى لأى من العوامل المؤكدة للثبات أو المثيرة للتغير . وقد تتعلق النسبية أساسا بطبيعة الاطار النظرى الذى ارتضاه الباحث منطقا يدرك أو يجرد بالنظر اليه الواقعة موضع الدراسة . غير أنها قد تعنى أيضا ان الاهتمام العلمى بسياق معين لاينصب على كلية الحقائق الممكن معرفتها . ولا على كل الحقائق المتعلقة بالظواهر الواقعية موضع الدراسة ، وانما ينصب أساس على بعض عناصرها المنتقاه . ومن ثم فى أى لحظة نجد ان الكم الكامل لمعرفة التى لدينا ليست انعكاسا كاملا للحقيقة الواقعية المدركة انسانيا (٨٨) .

فاذا انطبق ماسبق على العلم بصفة عامة ، فما هى اذا ماهية علم الاجتماع ووظيفته من وجهة نظر ماكس فيبر . مبدئيا يعرف ماكس فيبر علم لاجتماع بأنه العلم الذى يحاول انجاز الفهم التفسيرى Interpretative Sociology للفعل الاجتماعى من أجل الوصول الى نتائجه ومساراته (٨٩) . ويؤكد ماكس فيبر ان التفسير فى العلوم الثقافية يتم وفقا لمستويات عديدة نميز من بينها المستويات الثلاثة التالية :

١ – المستوى الأول وهو المستوى الذى يمكن تسميته بالتفسير المتعلق بفقه اللغة Philolog-cal Interpretation، وهو يتكون من استيعاب المعنى الحرفى للنص ، وذلك من خلال نقد الدراسات والوثائق الخ . ويعتبر ذلك هو العمل التحضيرى المطلوب فى كل العلوم الانسانية والذى يصاحب أى دراسة للمصادر .

٢ – المستوى الثانى ، وهو مايمكن ان نسميه بالتفسير الأخلاقى أو التقويمى Ethical or Evalustive ، وهو يتكون من تعيين قيمة معينة لموضوع الاهتمام . ثم تأسيس حكم ملائم أو غير ملائم بشأنه ، ويندرج هذا النموذج للتفسير من التقويمات الشعورية أو العاطفية الخالصة عن طريق التعاطف Empathy مع أحداث وظروف حياتنا اليومية ، وحتى المجالات العليا الأكثر تحديدا للمقدسات والأحكام الأخلاقية .

٣ – أما المستوى الثالث فهو مايسميه بالتفسير العقلانى Rational Interpertationالذى يكمن هدفه فى أنه يساعدنا على فهم العلاقات ذات المعنى من خلال السببية ، أو من خلال التفهم ، بين مختلف الظواهر ، أو بين مختلف عناصر ذات الظاهرة (٩٠) .

يبقى بعد ذلك ان نوضح مسألتين . حيث تتعلق الأولى بعلاقة علم الاجتماع بمختلف العلوم الأخرى ، أما الثانية فتتعلق بالتركيبة الأساسية لعلم الاجتماع كعلم ، ثم مكانته بين مختلف العلوم بالنظر الى طبيعته الأساسية . أما فيما يتعلق بعلاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى ، فبالنظر الى الخلاف الذى عاصره فيبر والذى وقع بين المثالية المحدثة من ناحية وبين الكانتية المحدثة من ناحية أخرى . والذى يتعلق بتحديد انتماء علم الاجتماع . هل ينبغى ان ينتمى الى زمرة العلوم الطبيعية التى تهتم بدراسة الحقائق بهدف الوصول الى القوانين العامة التى تحدد طبيعة العلاقات السببية بين العناصر ، أم ان علم الاجتماع ينبغى أن يكون ضمن العلوم الثقافية ، ومن ثم فان عليه ان ينحو منحى ذاتيا نحو الحقيقة بهدف تفهم معناها عن طريق ربط المعانى بعناصرها الأساسية ، كل معنى بالأخر (٩١) . فى اطار ذلك يؤكد ماكس فيبر تصنيف العلوم الى قسمين ، لكل منهما موضوع اهتمام غالب ، الأولى مجموعة العلوم التاريخية لتى تركز انتباهها على ظواهر واقعية معينة تحاول بقدر الامكان تحديد أسبابها ونتائجها . ولانجاز ذلك فهى تحاول الاستعانة بمساعدة تصورية أيا كانت طبيعتها . والأمثلة على ذلك الجيولوجيا فى مجال العلم الطبيعى والمترويولوجيا Meteorology. ويعتبر التاريخ بشكل أساسى مثالا لها فى المجال الاجتماعى بالاضافة الى الأنثروبولوجيا . أما المجموعة الأخرى من العلوم ، فهى مجموعة العلوم التحليلية ، وهى التى تهتم أساسا ببناء انساق النظرية العامة الصادقة بالنظر الى الكم الهائل من الظواهر الواقعية التى تلائم هذه الانساق دراستها (٩٢) .

فما هى اذن طبيعة وموقع علم الاجتماع بالنظر الى هاتين المجموعتين . يؤكد فيبر ان علم الاجتمع من ناحية علم اجتماع تاريخى حينما يهتم بالنتائج الفريدة والمتعلقة بواقع اجتماعى وثقافى محدد . أى حينما ينصب اهتمامه على لامفرد التاريخى ، بحيث يكون نمط التفسير الذى يهدف اليه فى هذا الاطار هو التفسير السببى أو التفسير عن طريق تفهم المعنى . وتكون المعطيات التى يحاول البحث عنها هى معانى هذا المفرد أو شروطه الواقعية . وهو من ناحية أخرى علم اجتماع تحليلى مادام يهدف الى الوصول الى القوانين السببية التى تحكم الظواهر الاجتماعية ، بحيث يكون منهجه فى ذلك هو التفسيرات السببية أو تلك المكاشفة عن

المعنى Meaningful Interpnetation وذلك من خلال المعطيات المتعلقة بمعانى الموضوع موضع الدراسة أو ظروطه الواقعية [٩٣] . خلاصة القول ان علم الاجتماع هو الاجتماع التاريخى الذى يهتم بالمفرد التاريخى . وهو أيضا العلم التحليلى الذى يهدف الى بناء الانساق النظرية التى يتم تجريد مقولاتها الأساسية من خلال دراسة عديد من المفردات التاريخية ، والتى يمكن الاستفادة منها فى بناء النسق النظرى بهدف استخدامه فى تقديم فهم وادراك علمى للمفرد التاريخى .

يضاف الى ذلك ان فيبر يرفض باصرار تصور أوجست كونت لتصنيف العلوم وترتيبها كل بالنظر الى الآخر . حيث تتأسس العلوم الاجتماعية مستندة الى العلوم الطبيعية الكائنة فقط . ولقد دفع ذلك الاعتقاد الى رفض أوجست كونت أن يكون علم النفس علما مستقلا ، واعتبره فرعا من البيولوجيا . اذ اعتقد ان هناك علما واحدا للمجتمع بينما هناك علوم طبيعية كثيرة . بالنظر الى ذلك يؤكد ماكس فيبر أنه يمكن ان تكون هناك علوم مادامت هناك مداخل كثيرة الى المشكلة ومن ثم فليس من حقنا ان نفترض اننا قد استنفدنا كل المداخل الممكنة الى الحقيقة [٩٤] . ولنفس السبب يسجل فيبر رفضه الثانى ، حيث اعتبر أنه من السذاجة أن يحاول بعض الفلاسفة تأسيس أساس مشترك للعلوم الانسانية عن طريق إرجاعها مثلا الى علم النفس . حيث يؤكد انه مادام لكل علم مسلماته فانه بذلك يكون مستقلا . فليس هناك علم يمكن ان يكون نموذجا لمجموعة من العلوم الأخرى .. فمكانة علم الاجتماع كعلم مستقل تعتمد أساسا من وجهة نظر ماكس فيبر – المشاكل أو القضايا التى يتصدى لها [٩٥] .

ثانياً : فيبر والتأليف بين الذاتية والموضوعية .

ماهى المداخل الأساسية لأدراك هوية التفاعل الكائن بالواقع الاجتماعى ، حيث شكلت البرهنة التى قادها فيبر فيما يتعلق بهذه المقولة صياغة حاول فيبر من خلالها أو يوجد بين الادراك الذاتى للباحث كمدخل لادراك العناصر الأساسية للواقعة ، وبين الشروط الموضوعية الواجبة أن تكون فى أى فهم علمى يبدأ من المدركات الجزئية وينتهى بالتعليمات العامة التى ينتفى فى اطارها كل ما هو ذاتى . ولتحقيق ذلك نجد ان فيبر يتبع الاستراتيجية الانتقائية التى تنتقى فى اطارها عناصر من كل منهما . ثم محاولة التأليف فيما بينها لتوفير نمط الفهم الذى أراده غير انه لتوضيح الاستراتيجية المنهجية لماكس فيبر فى هذا الصدد ، فانه ينبغى التعرض لكل من الادراك الذاتى والموضوعى بهدف تحديد المداخل التى ألف فيبر بينها فى اطار موقف جديد .

وفيما يتعلق بالادراك الذاتى ، فان الاهتمام به بدأ مع مسألة أثيرت تتعلق بتصنيف العلوم ، حيث كانت هذه القضية موضع جدل وخلاف بين المثالية المحدثة كما أشرنا من ناحية وبين الكانتية المحدثة من ناحية أخرى . فى هذا الصدد نجد الكانتية المحدثة تذكران العلوم الاجتماعية والطبيعية على السواء تبحث عن العلاقات السببية التى تحكم اطراز الظواهر . فى مقابل ذلك نجد ان المثالية المحدثة تذكر ان العلوم الطبيعية هى التى عليها ان تؤسس القوانين السببية ، بينما تحاول العلوم الاجتماعية والثقافية ادراك المعنى . فى اطار ذلك نجد ان الادراك على هذا النحو يصل المعانى بعضها ببعض حتى يتفهم الباحث موضوع البحث بشكل مباشر من خلال الحدس (٩٦) . ويركز الادراك الذاتى للفعل أو السلوك على تحديد المعنى الكلى الكامن وراء الفعل أو الذى يتولى صياغة تماسك عناصره الأساسية . بذلك يصبح المعنى هو تلك العلاقة التى ندركها شعوريا بين وسائل الفعل وغاياته . حيث يمكن لهذا المعنى ان ينتظم بأساليب عديدة . وقد يدرك المعنى بشكل مباشر ، مثل معنى القضية ٢ + ٢ = ٤ حينما نقرؤها أو نسمعها . وقد يكون ادراك المعنى له الطابع التوضيحى Explnatory كحينما نفهم سبب انجاز الفاعل لفعله بالنظر الى دافعه ، حيث يؤدى فهم الفعل أو السلوك بالنظر الى دوافعه الى احلاله فى اطار نشاط أكثر اتساعا . ومن ناحية أخرى قد يكون المعنى بارزا فى أحد أنماط السلوك ، بينما هو يمثل مكانة ثانوية فى سلوك آخر . بل اننا فى بعض الأحيان نجد انه من الصعب عزل عنصر المعنى كمكون سببى فى السلوك (٩٧) . بل انه لما يميز الملامح الأساسية للمعنى اننا نحاول ادراك الفعل بالنظر الى مقدماته المزامنة دون الاشارة الى أية مبادئ أو قوانين عامة (٩٨) . ذلك يعنى ان مدخل ادراك الفعل أو الواقعة يركز كثيرا على خصوصيتها . ومن الواضح ان المدخل الذاتى يتميز بعدة خصائص تكسبه هويته ويؤدى توفرها الى تأسيسه كمدخل فعال لادراك معنى الحقيقة أو الواقعة موضع الدراسة .

أول هذه الخصائص تتمثل فى انه نظرا لأن الادراك الذاتى يرتبط بالنظريات الحدسية – التى تشكل الترشيد المنهجى Methodnlogical Rationalization للجناح الجمعى Collec-tivist Branch من الفكر الألمانى – فانه اهتم أساسا باستيعاب Grasp أو فهم الكليات الثقافية Cultural ككليات لها خصوصيتها المتفردة . وارتبط ذلك فى المجال الاجتماعى بالتفهم Verstehen . حيث ادراك جوهر الكليات الثقافية فى اطار نسق ما من المعانى ، تبدو الحقائق الواقعية مجرد تجليات أو تعبيرات عنه . ولقد أدت سيادة هذا الاتجاه وتحوله الى مذهب منهجى الى احتوائه على قضيتين متصلتين منطقيا . الأولى تعنى ان التعميم فى مجال الظواهر البشرية يمكن ان يعنى فقط استيعاب أو فهم الكليات الثقافية فى خصوصيتها وتفردها الكامل

. أما الثانية فتشير الى ان استيعاب هذه الكليات أو فهمها عادة مايتخذ شكل الحدس المباشر . أعنى الادراك المباشر للمعانى بدون تدخل المفاهيم من أى نوع . فى اطار ذلك نجد ان فيبر قد هاجم القضية الثانية بينما كانت علاقته بالأولى معقدة للغاية [٩٩] .

أما فيما يتعلق بالقضية الأولى الخاصة بتفرد الحقيقة الواقعية من وجهة نظر (المدخل الذاتى) . وهى الخاصية التى تؤدى الى فشل كثير من النظريات التى تفترض امكانية استنباط الحقيقة الواقعية من المفاهيم . حيث يؤكد أصحاب هذه النظريات انه اذا تمكن العلماء من الكشف باستمرار عن القوانين العامة فانه سوف يصبح بامكاننا يوما ما تأسيس نسق متكامل من المفاهيم ، له فاعليته فى امكانية استنباط الواقع منه [١٠٠] . ويذهب فيبر الى ان الذين يؤكدون ذلك يتجاهلون ان المفهوم انتقائى بطبيعته ، ومن ثم فان كم المفاهيم والانتقاءات لايمكن ان يتساوى أبدا مع الكم الكلى للحقيقة الواقعية . فاللانهائى ليس تراكما من الأشياء النهائية . الدلالة على ذلك ان الأنساق الفلسفية التى سادت القرن التاسع عشر عمقت توقعاتنا بأشياء كثيرة لم يتحقق منها شئ [١٠١] . وهو فى ذلك ينتقد بشكل ضمنى التوقعات المستقبلية للنسق الماركسى فيما يتعلق بانهيار الرأسمالية وتأسيس المجتمع الشيوعى وانتشارها كونيا من خلال ثورة بروليتارية كاسحة .

يضاف الى ذلك ان بالحقيقة الواقعية مايجعل مسألة استنباطها من المفاهيم أمرا مستعصيا . ذلك لأن الحقيقة الواقعية لا عقلانية Irrational بطبيعتها . بينما المفاهيم والتعميميات العامة عقلانية فى أساسها . ومن ثم فلايمكن للاثنين ان يتقابلا . بذلك يوافق فيبر على القول بأن الحقيقة الواقعية من طبيعتها أنها متنوعة ولا نهائية بشكل كامل ، حتى أنه يصعب بالنظر الى ثرائها على هذا النحو ، وواقعيتها ، وفرديتها ، استيعابها أو ادراكها بالنظر الى نسق من المفاهيم المجردة . غير ان ذلك لاينبغى – على مايذهب فيبر – ان يشكل خلافا بين العلوم الطبيعية والاجتماعية [١٠٢] .

ويعتبر الفهم من الداخل الخاصية الثانية للمدخل الذاتى . بالنظر الى ذلك يؤكد فيبر أنه فيما يتعلق بالظاهرة الطبيعية فانه يمكننا ملاحظة المسار الخارجى للأحداث فقط . وهو مايؤدى بنا الى الكشف عن عناصر الاطراد . أما فيما يتعلق بالسلوك الانسانى فانه وان كانت هناك امكانية لذلك . إلا أن الباحث يكون فى العادة قادرا على نسبة دوافع السلوك أو الواقع بالنظر الى البشر ، أى أنه يقوم بتفسير أفعالهم وكلماتهم بالنظر الى كونها تعبيرات عن هذه الدوافع . وهو مايعنى الاقتراب من الجانب الذاتى للفعل أو السلوك . ومادامت الحقائق المتعلقة بالفعل

البشرى تساعد على ذلك . فان ذلك يشير الى الأهمية المحورية التى يلعبها مفهوم التفهم فى البناء المنهجى لماكس فيبر (١٠٣) .

وفى أعقاب ذلك يؤكد فيبر ان المعرفة بالحقيقة الثقافية عادة ماتكون من وجهة نظر خاصة . حيث أنه بدون الأفكار التقويمية للباحث فانه سوف تستحيل أية معرفة ذات معنى بالنسبة لحقيقة الواقعية (١٠٤) . ومن ثم فليس هناك تحليل علمى مطلق الموضوعية فيما يتعلق بالثقافة أو الظواهر الاجتماعية مستقل عن وجهات النظر الخاصة أو تلك التى من جانب واحد (١٠٥) . وهو مايعنى فى نهاية الأمر افتراض أن ادراك الحقيقة الواقعية يتم عادة بالنظر الى اطار نظرى . وعادة ماتختلف الأطر النظرية باختلاف اتجاهات الباحثين ، وباختلاف الفروض النظرية المشكلة بالنظر الى أطرهم النظرية . البرهنة على ذلك تباين التحليل الاقتصادى والاجتماعى لشنأة النظام الرأسمالى واستمراره بين كل من كارل ماركس ، وماكس فيبر ، حيث يفضل الأول تناول الحقيقة بالنظر الى اطار نظرى تؤكد افتراضاته على محورية العوامل الاقتصادية بينما يتبنى الثانى اطارا نظريا يؤكد على منظومة الثقافة والقيم .

وتعتبر امكانية التنبؤ بالمستقبل والموقف من هذه المسألة احدى الخواص المميزة للمدخل الذاتى الى حقيقتين . الأولى ان هدف المعرفة الملائمة Adequate فى مجال معين ليست ان تعرف كل الحقائق ، أعنى كل الحقيقة الواقعية ، حيث يصبح مثل هذا الهدف مستحيلا . ومن ثم فمعيار كفاءة المعرقة العلمية عادة مايكون بالنظر الى الغرض العلمى موضع الاهتمام . والثانية ان معرفتنا لا تساعدنا على التنبؤ بكل ظواهر المستقبل بكامل تفاصيلها الواقعية . ويستخدم فيبر مثال تناثر قطع الحجر التى عصفت به الرياح . حيث لايوجد علم يعرفه قادر على التنبؤ الدقيق بحكم وشكل ومكان كل قطعة بعد هبوب العاصفة من واقع البيانات التى أمكن توفيرها قبل هبوبها . هذا فى حين ان التنبؤ يرتفع مستواه فى اطار العلوم الطبيعية لأن اهتمامنا ينصب أساسا على جوانب الوقائع الطبيعية بالنظر الى قوانين مجردة معروفة . بينما اهتمامنا فى المسائل الاجتماعية يكون عادة عند مستوى آخر . وعلى أية حال فالتنبؤ عادة مايكون بالنظر الى مدى تأسيس التعميم المجرد ، فحينما يوجد هذا التعميم فان التنبؤ عادة مايتبعه (١٠٦) . ومن الواضح ان مثل هذه التعميمات أكثر وجودا فى العلوم الطبيعية منها فى العلوم الاجتماعية التى تعمل على تأسيس هذه التعميمات التى يمكن ان تتحكم فى الظواهر

الاجتماعية بالأسلوب المنهجى الملائم . وبرغم تاكيد فيبر على أهمية المدخل الذاتى فى ادراك الحقيقة الاجتماعية على اعتبار أن استخدام الحدس فى الظواهر الاجتماعية كان تابعا لشيوع استخدامه فى العلوم الطبيعية (١٠٧) . فاننا نجده يوجه الى المدخل الذاتى بعامة والحدس بشكل خاص مجموعة أساسية من الانتقادات .

ومنذ البداية نجده ينتقد الحدسيين مؤكدا أنهم يخلطون بين مسألتين : الأولى تتعلق بالعمليات التى يمكن عن طريقها الوصول الى المعرفة الصادقة . والثانية تتعلق بالأسس المنطقية لصدق هذه المعرفة (١٠٨) .

أما الانتقاد الثانى فيتمثل – من وجهة نظر فيبر – فى أن الحدسين يخلطون (مادة التجربة الخام Raw Data Experience بالمعرفة Knowledge التى يمكن استخلاصها عن هذه المادة) . ونتيجة لذلك فالكل الذى نستطيع تأسيسه ليس مجرد انعكاس مبسط للخبرة البسيطة ، وإنما يتضمن انتقاء منظما لعناصر الخبرة أو التجربة . ويتضمن هذا الانتقاء أو التنسيق Systematization نسبة الخبرة أو التجربة الى المفاهيم بما فيها المفاهيم العامة التى تؤدى دورها كأساس للحكم على عناصر التجربة ذات الأهمية أو الدلالة بالنسبة للكل . حيث يصدق ذلك على كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء (١٠٩) .

وينصب الانتقاد الثالث للمدخل الذاتى على التفهم كمدخل للادراك . اذ يؤكد ان الخبرة بالمضمون ذى المعنى يرتبط بنوع من اليقين المباشر الذى قد لا يتوفر فى معنى المعطيات المتعلقة بالأحداث الطبيعية . وهى الحقيقة التى تؤكدها النظريات الحدسية . فى اطار ذلك نجد ان فيبر يتهم أصحاب المدخل الذاتى والتفهم بنوع آخر من الخلط . فاليقين المباشر والناتج عن ادراك المعنى يعتبر فى أقصى حالاته مجرد عنصر فى عملية البرهنة حول صدق المعرفة ومن ثم فهى فى ذاتها ليست موضع تصديق أو ثقة . وانما ينبغى اختبار صدقها بالنظر الى نسق المفاهيم المتسقة عقلانيا . فاذا لم يتم الاختبار أو الفحص للتحقق من صدق الحدس المباشر فان ذلك قد يؤدى الى وجود سلسلة لا نهاية لها (من الأحكام الحدسية) التى تبتعد كثيرا عن الواقع . ولا يختلف ذلك عما هو كائن فى العلوم الفيزيقية . حيث لا يمكن الاستناد الى صدق الانطباعات المباشرة للمعنى بدون نقد تصورى أو نظرى . اذ يعنى ذلك ان هذا الانطباع الذى قد يصف الحقيقة يتم تصميمه بالنظر الى نسق عام من المعرفة النظرية (١١٠) . ثم يذهب فيبر الى ان حدسنا بالمعنى قد يكون حقيقيا أو صحيحا غير ان التفسير الحدسى قد لا يتسق مع

نسق المفاهيم النظرية المتساوقة عقلانيا . فاذا تطابق الحدس مع الاطار النظرى ، فانه فى هذه الحالة يمكن ان يشكل معرفة . غير أنه بدون هذا التقويم بالنظر الى النسق النظرى فان الباب يظل مفتوحا لأى عدد من الادعاءات غير المضبوطة أو التى لايمكن التحقق من صدقها . ثم ينتهى الى القول بأن الموقف الحدسى لديه امكانية الهروب من مسئولية الأحكام العلمية (١١١) .

ويعتبر المدخل الموضوعى ، الاطار الثانى الذى كان على فيبر ان يستند اليه ، بالاضافة الى المدخل الذاتى ، لصياغة موقفه النظرى . هذا برغم ان المدخل الموضوعى له استراتيجيته فى الادراك المناقضة تماما لاستراتيجية المدخل الذاتى . فبينما يؤكد المدخل الذاتى على ضرورة التعميم فى مواجهة التخصيص . اذ يتجه المدخل الموضوعى لادراك الحقيقة من خلال ثلاثة أبعاد أساسية . الأول يتمثل فى تخليص الحقيقة الموضوعية موضع الدراسة من كل جوانبها الخاصة التى قد تتميز بها . وذلك عن طريق ارجاع التباينات الكيفية الى تكميمات قابلة للقياس يمكن أن تكون أساسا لمسلمة منطبقة عامة (١١٢) . أما البعد الثانى فيتكامل مع الأول حيث يتركز الاهتمام على الخصائص العامة للظواهر ، بهدف تأسيس علاقات ضرورية ومطردة بينها . بحيث يقود ذلك الى تأسيس نسق من العلاقات والقوانين التى تتزايد فى عموميتها وتكون ذات طبيعة رياضية بقدر الامكان . وتشكل فى النهاية نسقا استنتاجيا يبدأ بالقوانين والمبادئ الأساسية المجردة ذات الطابع البسيط (١١٣) . أما البعد الثالث فيتمثل فى انه اذا كنا قد تمكنا من تأسيس مجموعة التعميمات العامة التى تدرك الحقيقة بالنظر اليها ، فانه لكون هذه التعميمات ذات صدق وثبات ، بالنسبة للحقيقة موضع الدراسة . فانها تشكل بعدا يحتل المسافة بين الباحث وموضوعه موضع الاهتمام ، فتجعل فهمه غير مباشر بدلا من كونه مباشرا . وبذلك فهى تخلص التناول العلمى للحقيقة الواقعية من كل تحيز ممكن قد يكون مصدره ذاتية الباحث وقيمه الذاتية (١١٤) . ويشكل الفهم من الخارج الخاصية الثانية للمدخل الموضوعى وهى خاصية تجعل علم الاجتماع يتخذ موقفا مماثلا من موقف العلم الطبيعى . حيث انه اذا كان من الممكن فى تناول وقائع الطبيعة ان نلاحظ مظاهرها الخارجية ، للكشف عن عناصر الاطراد فى اطارها . فانه يمكن انجاز ذات الفهم فى اطار الوقائع الاجتماعية ، بالاضافة الى امكان فهمها بالنظر الى دوافعها (١١٥) . ويشكل التكميم واستخدام المنهج الرياضى احدى خواص المدخل الموضوعى حيث يعتقد فيبر ان التكميم هو الطريق الوحيد الى المعرفة العلمية الصادقة وواقع الأمر ان التكميم والقياس ليسا سوى اجراءات منهجية ، والمنهج الرياضى كغيره يتضمن انتقاء بعض جوانب الواقع اللانهائى ، ومن ثم فهو صادق فى اطار

مسلماته فقط [١١٦] . ويهدف المنهج الرياضى أساسا الى الكشف عن الاطرادات والتماثلات الكائنة فى الظواهر موضع الاهتمام والدراسة . وذلك بهدف الوصول الى العميمات التى تحكم مختلف تفاعلاتها .

وفى أعقاب توضيح موقف ماكس فيبر من كل من المدخل الذاتى والموضوعى نعرض الآن لطبيعة الحل المنهجى الذى قدمه فى هذا الصدد . وبنظرة عامة نرى ان فيبر قد اختار جانب المدخل الذاتى فى الكشف عن الحقيقة موضع الدراسة ، إلا أنه وضع مجموعة من الضوابط والمحكات العلمية التى توفر صفة الموضوعية للادراكات الذاتية للباحث . من هذه المحكات مثلا أن يكون الباحث على وعى تام بموضوع بحثه ، فليس من الملائم ان يقف خارج الموضوع كما يذهب دوركيم . حيث يعجزه ذلك عن ادراك الديناميات الداخلية الواقعة ، ومن ثم يسقط فى اطار معاملتها من خلال نوع من السببية الكلية التى تربط الظاهرة موضع الدراسة بظاهرة أخرى من خلال علاقة خارجية . فالباحث فى اطار ذلك يتعامل مع النتائج بينما المطلوب منه ان يتعامل مع المقدمات . كذلك نجد ان فيبر فى المقابل يرفض الموقف لوجودى الذى ينادى باستغراق الباحث فى موضوعه ، بحيث يتحول الى جزئية غير قادرة على تجاوزه من خلال طرح نظرة شاملة على علاقة الموضوع موضع الأهتمام بالسياق الذى يحتويه والباحث معا . هنا نجد أن الحل الذى يقدمه فيبر يمثل فعلا أحد النماذج المتميزة للخروج من هذه المعضلة . حيث يؤكد انه اذا كان الباحث مهتما اهتماما عاطفيا بموضوع بحثه فانه سوف يكون متصلا به ومتحيزا . ومن ثم فاذا كان على الباحث ان يكون لديه شعور بأهمية ما يمارسه البشر من أجل أن يفهمهم جيدا ، فانه فى ذات الوقت عليه ان يفصل نفسه عن هتمامه الشخصى ، اذا كان يرغب فى الكشف عن اجابة ذات صدق شامل لتساؤل أثير من منطق اهتمام خاص [١١٧] . أما المحك الثانى لتحقيق الموضوعية فيتمثل فى الاطار النظرى الذى ينبغى أن يتبناه الباحث لتوجيه ملاحظاته الذاتية . فى هذا الصدد يلعب الاطار النظرى دور التوجيه القيمى للباحث . ولاتعنى هذه التسمية ان له علاقة بأحكام القيمة أو المسائل الذاتية المرتبطة بالموضوع موضع الاهتمام . غير ان فيبر لا يعتقد فى امكانية تأسيس نسق نظرى من هذا النوع يمكن ان يلقى قبولا عاما [١١٨] . وذلك أستنادا الى فرضية أساسية فى مشروعه النظرى وهى امكانية تعدد زوايا الرؤية بالنسبة للحقيقة الواقعية .

ويؤكد فيبر ان التوجيه القيمى يحدد التساؤلات الأساسية التى ينبغى طرحها بشأن الحقيقة موضع الدراسة . فاذا سألنا المؤرخ عن سبب اهتمامه بالثورة الفرنسية أو بفلسفة

نيتشه ، أو اذا سألنا عالم الاجتماع عن سبب دراسته للعلاقات الاجتماعية فى مستعمرة عمالية ، أو الظروف المعيشة بين طلاب الجامعات ، فان أيهما سوف يجب بأن هذه الموضوعات هامة وذات جاذبية بالنسبة له . أما لماذا هى هامة ، فان الاجابة على ذلك عادة ماتكون بالنظر الى القيم المرجعية (١١٩) . اذا فعلى أساس التوجيه القيمى يستطيع الباحث ان ينجز انتقائية لبعض عناصر الحقيقة . وفى اطار هذا الانتقاء يعمل العالم أو الباحث على تطبيق الاجراءات المعتادة للبحث العلمى كالملاحظة الدقيقة ، نقد الافكار ، القيام بالمسوح والتوثيقات ، لتحديد العلاقات السببية ، والمقارنة ، الخ . وفى اطار هذا المستوى فان على الباحث ان يتجنب التقديرات التقويمية ، بمعنى الموافقة أو الرفض بناء على أسباب شخصية خالصة . بل ان على الباحث أيضا أن ييسر الفرصة للقارئ لكى يختبر صدق برهنته وصحتها وجوهرية القضايا التى يتناولها (١٢٠) . ويحدد فيبر بايجاز الوظائف الأساسية للتوجيه القيمى بأربعة أو خمسة :

(أ) انه يساعد على تحديد الموضوعات الأساسية للبحث أو الدراسة . أعنى انه يساعدنا على عزل أو فصل موضوع محدد عن الحقيقة الواقعية التى يختلط بها .

(ب) انه بمجرد اختيار الموضوع . فان التوجيه القيمى يساعدنا على فصل ما هو أساسى عما هو ثانوى . أعنى أنه يساعد على تحديد المفرد التاريخى Historical In-dividuality ، أو تفريد المشكلة (موضوع البحث) بحيث يحددها بالنظر الى عديد من العناصر والتفاصيل التى لا حصر لها .

(ج) انه فى حالة التوجيه القيمى فانه يمدنا بمعقولية تأسيس علاقة بين مختلف العناصر وبين المعانى التى نعينها لها .

(د) ان التوجيه القيمى يحدد لنا أيضا طبيعة العلاقات السببية التى ينبغى تأسيسها ، والى أى مدى يكون الارجاع السببى .

(هـ) انه بالنظر الى كونه ليس حكما قيميا ، ومن ثم فهو يتطلب تفكيرا واضحا ومفصلا لاختبار صدق قضايانا ، فانه يعمل على ألغاء الخبرة الشخصية والعاطفية من الممارسة العلمية (١٢١) . بيد أنه لتحقيق الموضوعية ، فليس كافيا ان يمتلك الباحث توجيها قيميا حتى تتحقق . وانما عليه ان يعلن طبيعة هذا التوجيه القيمى الذى تبناه اطارا لتناول حقائق الواقع بالفحص والدراسة . وبمجرد توضيح نقطة البدء هذه ، فان الموضوعية الحقة تصبح ممكنة . ومن ثم فبالنسبة لماكس فيبر مثلما هى بالنسبة لجونار ميردال

فاننا نحقق الموضوعية عن طريق اعلان موقفنا القيمى [١٢٢] ، ذلك يعنى ان الذاتية فى معناها السئ ليست إلا نتيجةلأخفاء حقيقة ان لدينا موقفا قيميا معينا [١٢٣] .

خلاصة القول فإن ماكس فيبر يتخذ موقفا منهجيا يبدأ فى اطاره الباحث ذاتيا إلا أنه ينتهى موضوعيا منفصلا عن الحقيقة الذى ارتبط بها فى البداية . فاختبار المشكلة يتحقق بالنظر الى مشاعر ذاتية قد تدفع اليها أوضاع قيمية مرجعية تتعلق بذاتية الباحث . غير أنه اذا كانت حدسياته بشأن الحقيقة موضع الدراسة ، فان هذه الحدسيات لاتكستب مشروعيتها العلمية ، وموضوعيتها الى من خلال تعريضها لاجراءات المنهج العلمى كما تأكد فى العلوم الطبيعية ويعمق فيبر بإيمانه بالموضوعية حينما يؤكد ان على الباحث صياغة قضاياه بشأن الظواهر موضع الاهتمام على النحو الذى يمكن غيره من الباحثين من اختيار صدقها وكفاءتها العلمية بسهولة ويسر .

ثالثا : السببية عند فيبر ، ملامحها وأنماطها .

أوضحنا فى الفقرة السابقة اتجاه المدخل الذاتى مباشرة نحو ادراك معنى الواقعة موضع الدراسة باعتبار ان الباحث القائم بادراك الواقع مشارك فيه . ومن ثم فهو يدرك التفاعل من حيث ديناميات وعلاقته بواقعه من الداخل . وفى هذه الفقرة نعرض لطبيعة العلاقات السببية التى ينبغى على الباحث ادراكها اذا هو نظر الى الواقعة من خارجها ، فى اطار ذلك نجد ان موقف فيبر من هذه القضية أقرب مايكون الى رفض الطابع الحتمى للسببية الذى تجلى بأقوى مايكون عند كل من كارل ماركس وإميل دوركيم بل والخلفيات النظرية العامة لكل منهما .

وتشكل مناقشة العلاقات السببية مبحثا هاما من الأفكار المنهجية لماكس فيبر . حيث يؤكد أنه اذا قلنا ان الحتميات السببية Causal Determinations . تعتبر أحد الاجراءات الهامة التى يتأكد بواسطتها الصدق للنتائج العلمية [١٢٤] . فان ذلك يطرح ضرورة التعرض لطبيعة العلاقات السببية ، التى يؤكد فيبر أنها كمفهوم تعرضت لغموض كبير . فأحيانا كانت تعادل بالمشروعية Legality وأحيانا بالظروف Conditions الذى يمكن تصنيفها كأسباب [١٢٥] . ثم نجده برغم رفضه للتحديدات السببية الأخرى يحدد وجهة نظره بقوله اذا قلنا ان (أ) تسبب (ب) فان ذلك يعنى ان (ب) تتبع دائما (أ) فى عدد من الحالات التى تمت

بلا خطأ ، ومن ثم فان ذلك قد يعتبر ضرورة ، والمشكلة التى قد تبرز هنا تتعلق بطبيعة هذه الضرورة . والاجابة على ذلك تتمثل فى ان الضرورة تكمن فى امكانية استنباط القضية أن (ب) تتبع (أ) من قضية أكثر شمولا هناك اتفاق قد توفر على صدقها . ووفقا لهذا التحليل يتضمن القول بالسببية الاشارة الضمنية الى بعض القضايا العامة (١٢٦) . وتستوجب محاولة ادراك معنى السببية عند ماكس فيبر ضرورة أن يكون ذلك بالنظر الى بعض الاعتبارات الأساسية .

١ - أما الاعتبار الأول فيتعلق بكون العلاقات السببية - من وجهة نظر فيبر - ذات طبيعة جزئية وليست كليا أساسا . اذ يدرك فيبر العلاقة السببية على انها جزئية Partial واحتمالية ، ونعنى بالعلاقات الجزئية ان هناك تصورا جزئيا وتحليليا للسببية . وهو على هذ النحو يرفض التفسير الذى طرحته المادية التاريخية . ومن ثم نجد ان فيبر ينكر باصرار ان يعتبر أحد عناصر الحقيقة الواقعية أساسيا أو جوهريا.ومن ثم فهو الذى يحدد طبيعة الجوانب الأخرى لهذه الحقيقة ، بدون أن تشارك هى أو أى من عناصرها الأخرى فى صياغته والتأثير عليه . بذلك فان السببية الجزئية تؤكد ان جزئية معينة من الحقيقة ذات صلة سببية ممكنة أو غير ممكنة ، ايجابية أو سلبية بجزئية أخرى من الحقيقة . فمثلا ترتبط السلطة السياسية المطلقة بتدخل الدولة فى أداء الاقتصاد ، فى اطار ذلك فان النظام السياسى اذا كان مطلقا فانه من المحتمل أن تتدخل الدولة فى أداء الاقتصاد . غير أن الباحث يمكن ان يؤسس توقعا آخر فى الاتجاه المضاد ، أى ان يبدأ بحقيقة اقتصادية كالاقتصاد المخطط ، أو الملكية الخاصة والجماعية ، ثم يبحث الى أى مدى يكون هذا العنصر الاقتصادى مؤديا الى أسلوب معين فى التفكير أو تنظيم السلطة السياسية أو عائقا له . بذلك تكون العلاقات السببية جزئية ، تتميز بالاحتمالية أكثر من تميزها بالضرورة الحتمية (١٢٧) .

ويؤكد فيبر أنه اذا حاولت تفسير واقعة تاريخية بالنظر الى قانون عام فإنك تسئ فهم التاريخ ، الذى يتكون من تتابع الأحداث المفردة . فى اطار ذلك فان الطريقة الوحيدة التفريد التى تنسب حادثة معينة لمجموعة خاصة من الأسباب التى يسميها فيبر مركب الأسباب Constellation وبرغم ان كلا من مكونات هذا المركب له دورة فى تأسيس الموافقة موضع الدراسة إلا أنهم لايتساوون من حيث الأهمية فى احداث الواقعه من وجهة نظر المؤرخ . ومن ثم فهو ينتقى من بينها ، وحينئذ تكون المشكلة التى تواجهنا : كيف يمكن للباحث أن يقدر أهمية السبب (١٢٨) .

٢ – وفى اطار الاعتبار الثانى يرفض فيبر الطابع الحتمى للسببية . اذ نجده منذ البداية يرفض استخدام مصطلح الضرورى Necessary ويستبدله بمصطلح كاف Adequate فى هذا الصدد نجد ان فيبر مدفوع بالرغبة فى فعل أى شئ فيما يتعلق باغفال الطابع اللاعقلانى للتطور . ومن ثم فهو يرفض التطور الطبيعى والحتمى الخالص للتاريخ ، بينما هو يبقى على صدق التفسير السببى (١٢٩) . اذن يرفض فيبر اعتقاد المؤرخين بأن الماضى كان محتما بينما المستقبل ليس كذلك ، فهو محرر من هذه الحتمية ، ذلك لأن النظر فى هذه القضية يكشف عن تناقض أساسى ، لأن ماهو ماض بالنسبة لى هو مستقبل بالنسبة لآخرين . فاذا كان المستقبل ليس حتميا على هذا النحو ، اذا فليس هناك بالتالى تفسير حتمى للتاريخ ، اذ انه من الناحية النظرية نجد ان امكانية التفسير السببى هى ذاتها بالنسبة للمستقبل والماضى . اذا لماذا لا نعرف المستقبل بصورة مؤكدة ؟ . من المؤكد على ما يذهب فيبر أنه من الممكن ان يواصل الباحث تحليه السببى للتاريخ بدون الوصول الى تفسير سببى ملزم ، ذلك لأن الواقعة المعقدة عادة ماتكون نتيجة لعدد كبير من الظروف فى وقت واحد . ذلك ان البشر قد يصدرون قرارتهم الحادة فى أى من لحظات التاريخ ، مثلما سوف يصدر الآخرون قراراتهم أيضا ، غير ان هذه القرارات عادة ماتكون متأثرة بالظروف وتتضمن قدرا من الحرية لأن هناك الآخرين فى ذات المراكز الذين قد تكون لهم قرارتهم المختلفة . خقيقة انه فى كل فترات التاريخ تسود اتجاهات أساسية ، غير ان هناك دائما قدرا من الحرية للبشر ، بسبب عدد من العوامل الأخرى ، التى لها فاعليتها فى اتجاهات متباينة (١٣٠) .

بذلك فان التحليل السببى للتاريخ يميل الى التمييز بين الدور الذى يؤدى أو ينجز بتأثير الظروف العامة ، وبين فاعلية شخص معين أو حادثة معينة عارضة . فللأفراد والأحداث العارضة دورهم فى التاريخ . ولما كان اتجاه التطور الاجتماعى والانسانى غير محدد قبلا ، فانه من المهم ان نمارس التحليل السببى للماضى من أحل تحديد المسئوليات التى يمارسها أفراد معينون ، أو تلك المتعلقة بأهداف معينة (١٣١) . فى اطار ذلك فانه يؤكد انه اذا كان كل شئ محددا قبلا ، فان السياسة سوف تصبح عملا لا معنى له . والى المدى الذى نجهل فيه طبيعة المستقبل وان هناك قليلا من البشر القادرين على صياغة ، فان السياسة سوف تصبح جهدا انسانيا نبيلا (١٣٢) . بالاضافة الى ذلك يؤكد فيبر ان السببية لها طابعها الزمانى والمكانى النسبى ، ومن ثم فهو يرفض التكرار السببى لفاعلية ذات العوامل تاريخيا وجغرافيا ، ويلغى ضمنيا أية حتمية يمكن ان

تتحكم فى تشكيل مسار التفاعل الاجتماعى (١٣٣) .

٣ – أما الأعتبار الثالث فيتعلق بطبيعة سببية الواقعة بين الشمول والتحدد . اذ يؤكد ان السببية ينبغى ادراكها بأسلوبين ، الأول باعتبار أنها سببية خاصة والثانية على انها سببية عامة . فمثلا فى محاولة تحديد أسباب الحرب العالمية الأولى ، فاننا سوف نهتم بمعاهدة ساراجيفو Sarajevo ، أو الانذار النهائى النمساوى الخ ، مثل هذه الأحداث لها قيمة الأسباب الخاصة ، لكونها علاقات ساعدت على اذكاء العدائيات . ومن ناحية أخرى فاننا اذا تحدثنا عن الأسباب الاقتصادية للحرب ، فاننا حينئذ نتناول الواقعة على – الظاهرة موضوع الدراسة – مستوى آخر هو المستوى النمطى ، أو المستوى العام . ثم يؤكد فيبر انه لمن المؤسف ان المؤرخين وعلماء الاجتماع قد خلطوا هذين الأسلوبين لفهم السببية (١٣٤) .

واقع الأمر على ما يذهب فيبر ان المنهج التعميمى لا يدرك العلاقات السببية بنفس أسلوب منهج التفريد . ذلك لأن السببية بمعناها الأصلى تحتوى على فكرتين أساسيتين ، الأولى فكرة السلوك العقلانى ، الذى يعبر عن حالة من الدينامية بين ظاهرتين متباينتين كيفيا ، والثانية فكرة الاندراج تحت قاعدة عامة . فى اطار ذلك نجد ان فكرة التعميم تميل لألغاء فكرة الفعل أو السلوك ، وبالتالى فكرة السبب وتبقى فقط على فكرة القانون بمعنى المساواة الرياضية بين الظواهر موضع الاهتمام . على عكس ذلك تحاول طريقة التفريد Individualizing اهمال فكرة القاعدة العامة أو القانون ، وتبقى التركيز قائما على التفرد الكيفى للتطور بشكل عام أو التحديد الكيفى لأى من مجالاته . ولا يعنى ذلك تفضيل فيبر لأى من نمطى السببية على الأخر ، أو ان السببية لا وجود لها فى علوم التاريخ ، أو ان تحليل السببية التاريخية أقل علمية ودقة من أى تحليل آخر (١٣٥) .

٤ – ويتعلق الاعتبار الرابع والأخير بضرورة توفر خاصيتين أساسيتين للسبب الذى نرى انه يؤدى دورا بارزا فى التفاعل المتعلق بالواقعة موضع الدراسة . أما الخاصية الأولى فتتصل بالامكانية الموضوعية لهذا السبب . ونعنى بذلك أن هناك دراسات متعددة تؤكد الفاعلية السببية لهذا العامل أو ذاك ، بمعنى ان تحديد الامكانية الموضوعية مسألة تتعلق باعتراف النسق العلمى بأهمية العامل موضع الاهتمام بالنظر الى اختيار صدقه وثبات دوره النسبى (١٣٦) . أما تحديد الخاصية الثانية وهى الكفاية ، فهى مسألة تتعلق بالتجربة الخيالية التى يجريها الباحث . حيث يؤكد فيبر أنه من أجل الوصول الى

العلاقات السببية الحقيقية ، فان علينا أن نؤسس علاقات سببية غير حقيقية . فالمؤرخ ، مستندا الى معرفته ، وعلى المصادر المتيسرة له ، يتخيل التغير الممكن لمسار التطور اذا ما ألغى السبب المسلم به أساسا للواقعة . وبهذا الأسلوب يقيم دلالة وأهمية هذا السبب بالنسبة للتطور التاريخي الذى ندرك وقوعه (١٣٧) .

وفى أعقاب توضيح الاعتبارات الأساسية لادراك العلاقات السببية من وجهة نظر ماكس فيبر ، نؤكد أنه طرح نمطين أساسيين من العلاقات السببية . فوفقا لما يذهب اليه هناك نمطان من السببية ، وللتبسيط سوف نسمى احداهما بالسببية التاريخية ، أما الثانية فنسميها بالسببية السوسيولوجية . وتحدد السببية التاريخية الظروف الفريدة التى أدت الى ظهور واقعة معينة . أما السببية السوسيولوجية فتهدف دائما الى تأسيس علاقة اطرادية بين ظاهرتين ، بحيث لا تحتاج هذه العلاقة أن تتخذ شكل ان (أ) تستوجب حتميا الظاهرة (ب) ، ولكنها ربما تتخذ شكل ان الظاهرة (ب) ، على سبيل المثال القضية – الصحيحة أو الزائفة – التى تؤكد ان النظام السياسى المستبد يدعم تدخل الدولة فى السيطرة على الاقتصاد .

وتتحدد قضية السببية التاريخية فى كونها تهتم بتحديد دور المقدمات Antecedents المتعددة الكامنة وراء واقعة معينة ويتضمن تحليل السببية التاريخية ضرورة اتباع الاجراءات التالية :

(أ) أنه ينبغى على الباحث أن يؤسس الذات Identity أو الموضوع التاريخى الذى نرغب فى تحديد أسبابه . قد يكون هذا الموضوع واقعة خاصة كالثورة البلشفية أو موضوعا تاريخيا من النمط الشامل كالرأسمالية . وييسر تأسس الموضوع التاريخى التحديد الدقيق لخصائص الواقعة التى نبحث عن أسبابها . فلكى نعرف أسباب الحرب العالمية الأولى فان علينا ان نكتشف أسباب اندلاع الحرب فى أغسطس . ومن ثم فأسباب هذه الواقعة المعينة ينبغى أن لا تختلط مع أسباب الحرب التى ترددت فى تاريخ أوربا ، أو مع أسباب ظاهرة الحرب التى نواجهها فى كل الحضارات . وبعبارة أخرى ، تتمثل القاعدة الأولى للمنهجية السببية فى المجال التاريخى السوسيولوجى فى التحديد الدقيق لخصائص الموضوع التاريخى الذى يرغب الباحث فى فهمه ودراسته .

(ب) ينبغى تحليل الظاهرة التاريخية الخاصة والمعقدة الى عناصرها الأساسية . ذلك لأن العلاقة السببية ليست علاقة مؤسسة بين كلية اللحظة (أ) وكلية اللحظة السابقة (أ) ، لأن العلاقات السببية عادة ماتكون علاقات جزئية من عناصر معينة تتعلق بالخاص التاريخى

وبين بعض المقدمات أو الحقائق السابقة .

(ج) انه فى حالة الاهتمام بتتابع سببى معين وقع مرة واحدة ، فانه لتحديد العلاقة السببية فان على الباحث أن يتبع ذلك بتحليل المفرد التاريخى ومقدماته بواسطة التجربة العقلية التى تتكون من تخيل ان تقع أى من العناصر السابقة بشكل مخالف ، أولا تقع على الاطلاق . فحينما نطبق التحليل السببى على حالة تاريخية مفردة ، فانه ينبغى أن يستمر عن طريق نوع من الاستبدال التخيلى Imaginary Alteration لأى من العناصر . ومن ثم نحاول تحديد ماذا يمكن أن يحدث اذا كان هذا العنصر غائبا ، أو اذا اتخذ شكلا آخر .

(د) وأخيرا فانه ينبغى أن نقارن هذا التطور المتخيل الذى أسس افتراضيا عن طريق تبديل Altering أى من المقدمات ، بالتطور الحقيقى ، وذلك قبل الوصول الى نتيجة أن العنصر المستبدل افتراضيا يعتبر أحد الأسباب المتعلقة بالموضوع التاريخى موضع الدراسة .

خلاصة القول ان السببية التاريخية تتعلق بالمفرد التاريخى ، حيث تحاول استجلاء مقدماته عن طريق التبديل العشوائى لهذه المقدمات ، أو عن طريق الاستعانة بالتجربة العقلية فى احيان أخرى ، أو بالاستعانة بالنموذج المثالى كوسيلة قياسية لتحديد الأسباب الجوهرية . بحيث يتم ذلك دون الاستعانة بأية افتراضات عامة على النحو الذى تعمل وفقا له السببية السوسيولوجية .

فاذا اتفقنا على أن السببية التاريخية تستغرق فى المفرد التاريخى للبحث عن مقدماته على حساب أغفال المفرد المماثل له أو القانون العام الذى يحكم اطراد التفاعل فى هذه المفردات ، فاننا نجد ان السببية السوسيولوجية اهتمت أساسا بالبحث عن القانون أو التعميم العام الذى يحكم وقوع أو اطراد الظواهر الاجتماعية . وتتميز السببية السوسيولوجية فى انها ذات طابع احتمالى أساس ، وتتنوع درجة الاحتمالية بتنوع الظروف . لذلك نجد أن التفكير السببى لماكس فيبر قد تمت صياغته بشكل احتمالى أساسا (١٣٨) ، وذلك يطرح تساؤلا يتعلق بطبيعة العلاقات التى تربط بين ظواهر التفاعل فى بناء المجتمع .

أول هذه العلاقات تلك التى حاول فيبر رفضها ، وهى السببية الأحادية التى تتميز بالحتمية والتى يشكل فى اطارها المجتمع بواسطة أحد عناصره كالنسق الاقتصادى

مثلا [١٣٩] . ورغم ان فيبر يرفض هذه الحتمية الأحادية ، كرفضه الموقف الماركسى الذى يعطى الأولوية للعوامل الاقتصادية فى صياغة التفاعل الاجتماعى ، فاننا نجده يدعم فكرة شديدة التناقض لماركس حينما يسقط فى حتمية مضادة ويفسر الجناب الاقتصادى بالنظر الى الدين [١٤٠] . غير أن حقيقة الأمر تتمثل أنه لايفترض سببية شاملة للدين ، وانما هو قد أراد من تأكيده على الدين أن يوضح أن اتجاهات البشر الاقتصادية تحكمها أنساق معتقداتهم ، مثلما يمكن أن تحكم معتقداتهم بواسطة النسق الاقتصادى . وهو بذلك يدعم موقفا يرفض فى اطاره السببية الحتمية للواقع الاقتصادى الاجتماعى فى صياغة المعتقدات [١٤١] .

فاذا جاز لنا ان نسمى النمط السابق للسببية بالحتمية النسقية ، فان النمط الثانى للحتمية الذى يرفضه فيبر يمكن ان نسميه بالحتمية الكلية . حيث نجده يرفض بهذا الصدد التتابع المتكرر للأشكال البنائية التى حدد تطورها كارل ماركس فى تكررها التاريخى والجغرافى . وأيا كان الموقف الذى يقفه فيبر فاننا نجده يعبر عن موقف ذى ملامح خاصة ، فهو يرفض تشكل الكلية البنائية بكلية بنائية أخرى . حيث يرفض ان تتحدد الملامح الكلية للمجتمع فى المستقبل بواسطة بعض خصائص المجتمع السابق عليه ، فنظرا لأن السببية لديه تحليلية وتجزيئية فانها لا تساعدنا عادة على تحديد ملامح المجتمع الرأسمالى أو مابعد الرأسمالى فى المستقبل . ولايعنى ذلك ان فيبر يعتقد أنه من المستحيل ان نحدد بعض ملامح المستقبل بل على العكس نجد أنه مقتنع بأن عمليتى الترشيد Rationalization والبيروقراطية Bureaucratization قد تستمر بقوة فى المجتمعات الحديثة . غير ان هذه العملية لا تستطيع ان تحدد بدقة طبيعة النظام السياسى وأساليب الحياة والتفكير والاعتقاد التى سوف تكون لدى البشر فى المستقبل [١٤٢] . واذا كان فيبر قد رفض تطور الأشكال البنائية على النحو التراكمى الذى رسمه ماركس فاننا نجده يرفض فى ذات الوقت الموقف الذى اتخذه بورك ، الذى أكد أن شكل المجتمع فى المستقبل والحاضر شاركت فى صنعه أجيال الماضى ، ومن ثم فليس من حق أجيال الحاضر تغييره وفقا لتصورها الخاص ، فالحاضر بدأ فى الماضى ، والمستقبل سوف يتشكل وفقا لعناصره الحاضرة [١٤٣] .

أما الحتمية الثالثة التى يرفضها فيبر فهى الحتمية الزمانية ، لأن الزمان ليس ثابتا بالنسبة لكل الأشكال . وانما هو متغير نسبى بالنسبة لمعظم الأشكال . وانما هو متغير نسبى بالنسبة لمعظم الأشكال . فالتطور الزمانى يطرح على الواقع دائما متغيرات جديدة . فالواقعة المعقدة عادة ماتكون نتاجا لعدد هائل من الظروف المتزامنه ، ففى لحظات التاريخ الهامة فى

الماضى أصدر البشر قراراتهم مثلما سوف يصدر بشر آخرون فى المستقبل قراراتهم أيضا ، غير ان هذه القرارات تتأثر بالظروف ، وهو مايعنى تأسيس قدر أعلى من الحرية للبشر فى اصدار قرارات متباينة فى مختلف المراحل (١٤٤) .

يبقى بعد ذلك ان نوضح علاقة السببية التاريخية بالسببية السوسيولوجية ، فالسببية التاريخية تحاول الفهم المتعمق للمفرد التاريخى . بيد ان هذا الفهم – سواء كان من منطق ادراك المعنى أو من منطق تحديد المقدمات السببية – لابد ان يتم بالنظر الى مجموعة من المقولات العامة التى تشكل اطارا شاملا للفهم والانتقاد . هذا الاطار يتم الوصول اليه عن طريق ملاحظة وتحليل مفردات تاريخية متعددة . وهنا نستطيع التأكيد على ان ثمة تساوقا متبادلا بين الاستغراق فى المفرد التاريخى الذى يساعد على تأسيس واثراء التعميم السوسيولوجى الذى يساعد بدوره على الفهم الأعمق للمفرد التاريخى الذى أسهم فى تجريده .

تلك هى المعالم العامة للسببية عند ماكس فيبر ، والعلاقة بين السببية التاريخية والسوسيولوجية . وعلى ذلك فهناك على مايبدو لنا ، علاقة وثيقة بين تحليل الأحداث أو الوقائع من ناحية ، وبين تأسيس القضايا العلمية من ناحية أخرى . اذ يمثل كل من التاريخ وعلم الاجتماع مدخلين لفهم الحقيقة الواقعية أكثر من كونهما علمين لا صلة بين أى منهما بالآخر ، ومن ثم يتطلب الفهم التاريخى استخدام القضايا العامة . ويمكن أن نوضح هذه النقطة عن طريق البدء بالتحليلات والمقارنات التاريخية . ولعل هذا التساند بين التاريخ وعلم الاجتماع يتبدى بوضوح بأكثر فى تصور ماكس فيبر عن (النموذج المثالى Ideal type) الذى يعتبر بمعنى ما تأليفا لمذهبه المعرفى Epistemological doctrine (١٤٥) .

رابعا : النموذج المثالى ، بناؤه ووظائفه .

يمثل النموذج المثالى ، الذى يعتبر أكثر مفاهيم فيبر محورية النتيجة المنطقية لتآلف اتجاهات متعددة فى التفكير الفيبرى . فهو من ناحية يساعد على التفهم Comprehension ، حيث يعتبر كل نموذج مثالى تنظيما لمجموعة العلاقات الأساسية فى كل واقعة تاريخية ، أو سلسلة من الوقائع . وفضلا عن ذلك نجد ان للنموذج المثالى علاقة بكل من المجتمع والعلم من خلال عملية الترشيد . ومن ثم يعتبر تأسيس النموذج المثالى تعبيرا عن كل المحاولات المتميزة لكل النظم العقلية ، والتى كانت تهدف من وراء تأسيسه الى توضيح موضوع بحثها عن طريق

الكشف عن عقلانيته الداخلية وتأسيسها . وأخيرا النموذج المثالى ، بالتصور الجزئى أو التحليلى للسببية ، وهو فى ذلك يساعدنا على فهم الوقائع أو العناصر التاريخية وان كان هذا الفهم عادة مايكون جزئيا بالنسبة لكل كامل (١٤٦) .

ومن الناحية التاريخية تظهر أولى صياغات ماكس فيبر للنموذج المثالى من خلال تفكيره كمؤرخ اقتصادى ، فى الفترة التاريخية التى تعرض خلالها لتأثير ركرت Rickert (١٤٧) . ففى اطار موافقته على تمييز ركرت بين التاريخ من ناحية والعلوم الطبيعية والاجتماعية من ناحية أخرى ، فان النماذج المثالية بدت حينئذ كأداة منهجية فى يد المؤرخ أساسا . ومن ثم فلقد كان هدفه من مقاله (الموضوعية فى العلوم الاجتماعية) أن يصف منطق استخدام النماذج المثالية وان يوضح الاختلافات والاتفاقات بينها وبين القانون فى العلوم الطبيعية (١٤٨) . هذا بالاضافة الى ان فيبر قد تعرف على استخدام النماذج المثالية عند مفكرين كان له معهما شأن كبير . أولهما جورج زيمل الذى اهتم ببناء التأسيسات الصورية لعديد من الأشكال البنائية كالمجتمع المحلى والمجتمع العام . والثانى من خلال كارل ماركس اذ يؤكد فيبر اننا سوف نشير هنا بالتحديد الى القوانين الماركسية وتأسيس الأشكال البنائية على أنها نماذج مثالية (١٤٩) .

وتكمن الصعوبة فى نظرية ماكس فيبر عن النماذج المثالية فى حقيقة انه يمكن التمييز فى اطارها بين عنصرين أساسيين ، بحيث يتمثل العنصر الأول فى وجود ميل عام للنمذجة المثالية Ideal-typical tendency لكل المفاهيم المستخدمة فى الثقافة والعلوم . أما الثانى فيتمثل فى الأنواع المحددة للنماذج المثالية التى ميز بينها فيبر ضمنيا على الأقل (١٥٠) . وبشكل عام فاننا نلاحظ فى فلسفة فيبر ميلا عاما نحو صياغة النماذة المثالية ، فما هو النموذج المثالى ؟ اجابة على ذلك يطرح فيبر تعريفات عديدة تتسم أحيانا بقدر من الغموض . فهو يؤكد أحيانا (ان النموذج المثالى يتأسس عن طريق الابراز الجزئى لوجهة نظر أو أكثر يمكن ترتيبها بالنظر الى وجهات النظر الجزئية الأخرى فى اطار تأسيس تحليلى موحد) (١٥١) وفى موضع آخر نجده يذهب الى ان النموذج المثالى عبارة عن وصف منطقى متسق من وجهة نظر محددة . بحيث يؤدى ذلك الى توضيح علاقات الوسائل بغايات الفعل حتى يساعد ذلك الباحث على تجميع الأفكار أو الارتباطات والتفسيرات المتناثرة فى اطار علم قابل للفهم (١٥٢) ولتجنب الاستغراق فى تعريفات تتميز الى حد كبير بالغموض فاننا سوف نحاول التعرف على النموذج المثالى من خلال تحديد عناصره الأساسية كما يلى :

١ – انه نظرة جانبية أو جزئية تتم بالنظر الى الاطار النظرى للباحث ، وذلك من شأنه أن يترك هامشا لتأثير التوجيه القيمى للباحث فى تحديد العناصر الأساسية للنموذج .

٢ – انه يعبر عن نظرة أحادية يجرد الباحث من خلالها – انتقائيا – عناصره الرئيسية من الظواهر الواقعية .

٣ – ان هذه العناصر التى يرى الباحث انها تشكل العناصر المحورية للواقعة أو الظاهرة – موضع الدراسة – يتم تأسيسها – بالاضافة الى بناء العلاقات المنطقية بينها – فى اطار بناء نظرى له اتساقه المنطقى وقدرته على المساعدة فى الفهم والتوضيح (١٥٣) .

وبالنظر الى ذلك فان التحديد الايجابى للنموذج المثالى كما يراه ماكس فيبر يتبدى فى كونه بناء من العناصر التى جردت عن الواقع والتى وضعت مع بعضها البعض ، لكى تشكل نموذجا تصوريا موحدا وهو مايتضمن المبالغة لبعض جوانب الحقيقة . وفى محاولة لتحديد هوية النمرذج المثالى بشكل أكثر وضوحا يؤكد ماكس فيبر ان النموذج المثالى ليس الصياغات النظرية التالية :

(أ) فهو ليس فرضا نظريا ، بمعنى أن ليس قضية تتعلق بالحقيقة الواقعية ، ومن ثم يمكن اختبار صدقها الواقعى ، فالنموذج المثال عادة مايتميز بالتجريد .

(ب) انه ليس وصفا للواقع ، اذا كنا نعنى بهذا الواقع موضوعا له وجوده الواقعى المتصل بهدف الوصف ، فى اطار ذلك أيضا يتميز النموذج المثالى بالتجريد .

(ج) أنه ليس متوسطا ، بالمعنى الذى يمكن أن نقول فى اطاره ان متوسط وزن الرجل يصل الى ١٥٠ رطلا . فالرجل المتوسط ليس نموذجا مثاليا .

(د) انه ليس صياغة للسمات الواقعية المشتركة بين فئات من الموضوعات الواقعية ، كان نقول ان وجود اللحى لدى الرجال يميزهم عن النساء (١٥٤) .

أما كيف يمكن تأسيس النموذج المثالى ، فاننا نجد ان فيبر يؤكد أنه ليس إلا استراتيجية للتفسير الامبيريقى ، ومن ثم فهو يتشكل بالنظر الى المعرفة العلمية المتيسرة للباحث وقت اجرائه للدراسة ، وبالنظر الى المواقف الامبريقية التى يحاول ادراكها . وبمجرد أن يساعد النموذج المثالى على تحقيق الفهم ، فانه يفقد وظيفته ، ويظل الانتفاع به على مستوى كونه وظيفة تربوية فقط . وهناك محكان أساسيان ينبغى مراعاتهما عند صياغة النموذج المثالى

– الأول هو الامكانية الموضوعية Objective Possibility ، والثانى هو السببية الكافية Adquate causstion – اذ تضمن الوحدة أو العنصر فى بناء النموذج المثالى اذا لم تتناقض والمعرفة العلمية الموجودة بشأنه والمتيسرة للباحث فعلا ، بذلك تتوفر لعنصر النموذج خاصية الامكانية الموضوعية ، أى تصبح ممكنة من الناحية الموضوعية . ويمكن ان تتدرج الامكانية أو الدلالة الموضوعية لأى عنصر أو وحدة من صفر الى ١٠٠ . أما الكفاية السببية فنعنى بها أن يكون العنصر الذى يدخل فى بناء النموذج المثالى – له دلالته السببية بالنسبة للنتيجة – أى بالنسبة للسلوك البشرى موضع الاهتمام والدراسة . فاذا تمت صياغة النموذج المثالى ، فانه ينبغى أن يساعدنا على تحديد المواقف المختلفة بدرجة أكثر مما يمكن انجازه بدونه ، فتأسيسه يساعد على مقارنج التنوعات الواقعية ، وليس المقارنة بين النماذج المثالية . وعلى هذا المستوى ، اذا ساعدنا النموذج المثالى على تحقيق مستوى من الفهم يكون قد أدى وظيفته ، أما اذا طلبنا فهما أكبر من ذلك فان ذلك يعنى افتراض صياغة نموذج مثالى آخر (١٥٥) . ويذهب ماكس فيبر الى امكانية أن ينجز النموذج المثالى الوظائف الأساسية التالية :

(أ) أنه عبارة عن وسيلة منهجية موجهة نحو توضيح معنى الموضع قيد البحث . وبعبارة أخرى فهو عبارة عن اجراء منهجى خالص يطوره الباحث اراديا وفقا لحاجات البحث ، ويمكن أن يتخلى عنه اذا لم يؤد وظيفته أو يشبع توقعاته . وبذلك تتحدد قيمة النماذج المثالية بالنظر الى فعاليتها فى عملية البحث . فاذا لم تكن كذلك فان للباحث حرية تأسيس نماذج مثالية أخرى أكثر فعالية . بذلك فالنماذج المثالية فى ذاتها ليست صادقة أو زائفة ، ولكنها مثل أى أداة منهجية أخرى مفيدة أو غير مفيدة (١٥٦) .

(ب) يكمن الدور الحقيقى للنماذة المثالية فى كونها تعتبر وسيلة توضيحية تساعد على اصدار الأحكام التى تتضمن التنسيب السببى ، وذلك يعنى أنها لا تؤدى دورها كفروض ، ولكنها تساعدنا على تأسيس الفروض . بالاضافة الى ذلك فان استخدام النموذج المثالى من شأنه أن يساعدنا على تحديد ماهو فريد وأساسى بالنسبة للأحداث أو المواقف ، عن طريق التوضيح فى كل حالة لمدى ابتعاد الواقع عن الصياغة التحليلية المجردة وغير الواقعية . وبذلك يؤدى النموذج المثالى دوره كوسيلة قياسية (١٥٧) .

(ج) وتتحقق الوظيفة الثالثة حينما نتمكن من صياغة عدد من النماذج المثالية المختبرة كفاءتها وصدقها الامبيريقى ، ومن ثم نجدها تشكل فى مجموعها اطارا نظريا شاملا له قدرته النسبية على فهم الواقع المتفاعل وادراك علاقاته السببية . وبذلك تتحول النماذج

المثالية لأية وقائع أخرى الى كتل بناء لتأسيس الصرح النظرى الشامل الذى هدف اليه ماكس فيبر (١٥٨) .

(د) أما الوظيفة الرابعة للنموذج المثالى فتتمثل فى امكانية استخدامه كوسيلة للمقارنة الموضوعية والعلمية . فالمقارنات التى أجراها الرواد الذين سبقوا ماكس فيبر قد وجهت باطار نظرى لكنها افتقدت المحكات التى يمكن على أساسها أن تتم المقارنة . وهنا نستطيع التاكيد على ان فيبر قد طور المنهج المقارن حيث اعتبر النموذج أساس للمقارنة يمكن بناء عليه قياس أو تحديد أى انحراف للواقع الاجتماعى موضع المقارنة (١٥٩) . ويرى ماكس فيبر أن هناك عدة أنواه للنموذج المثالى نذكرها فيما يلى :

(١) النماذج المثالية المتعلقة بالمفردات التاريخية Ideal types of historical particulars كالنماذج المثالية للرأسمالية أو المدنية الأوربية الغربية . ويظل النموذج المثالى للمفرد التاريخى مجرد صياغة جزئية مادام عالم الاجتماع ينتقى عددا معينا من سمات الكل التاريخى لكى يشكل منها ذاتية واضحة .

(٢) ويتكون الشكل الثانى للنموذج المثالى من مجموعة العناصر المجردة عن الواقع التاريخى ، وهى العناصر التى يمكن ان توجد أو تتردد فى عدد كبير من الحالات . وفى حالة ترابطها ، فانها تساعدنا على فهم الكليات التاريخية الحقيقية .

ويتضح اختلاف الشكلين – الأول والثانى – عن بعضهما البعض ، اذا اعتبرنا الرأسمالية مثالا على الأول بينما البيروقراطية مثالا على الثانى . فنحن فى الحالة الأولى نشخص ذاتا تاريخية ذات وجود حقيقى لا مثيل له ، بينما نحن فى الثانية نشير الى نظام لايغطى البناء بكامله أو من الممكن أن يجد الباحث أمثلة كثيرة له فى لحظات تاريخية مختلفة . ويمكن أن يتأسس هذا الشكل الثانى بالنظر الى ثلاثة مستويات :

(أ) التجريد المرتبط بمفاهيم مثل البيروقراطية والأقطاع .

(ب) المستوى الثانى يتعلق بالأمثلة أو الأنواع كالنماذج المثالية للسيطرة domination ، العقلانية ، التقليدية ، الكارزمية .

(ج) أما المستوى الثالث فهو أعلاها تجريدا ، حيث يتعلق بنماذج الفعل ، حيث الفعل العقلانى بالنظر الى القيم ، الفعل العقلانى ، ثم الفعل التقليدى ، والفعل العاطفى .

(٣) أما الشكل الثالث للنموذج المثالى فيتعلق باعادة التأسيس الرشيدة لنوع معين من السلوك ، على سبيل المثال تأسيس نماذج مثالية لمختلف قضايا النظرية الاقتصادية ، والتى تتعلق بالأساليب التى يتصرف البشر وفقا لها فى مواجهة موضوعات اقتصادية خالصة . حيث تدرك النظرية الاقتصادية السلوك الاقتصادى على انه سلوك يتسق مع جوهره ، هذا الجوهر الذى يمكن تحديده بشكل دقيق (١٦٠) .

وبرغم فعالية النماذج المثالية كوسائل منهجية تعمق من عملية المنهج المقارن ، وتلغى الى حد كبير التحيزات القيمية التى قد يسقط فى أسارها الباحث فانه قد وجهت اليها عدة انتقادات يمكن اجمالها فيما يلى :

(أ) حيث يؤكد النقد الأول انه نظرا لأن الباحث هو الذى يؤسس النماذج المثالية . ومادامت النماذج المثالية ليست إلا تأسيسات ابتكارية فان الباحث قد يتجه الى تبنى لعناصر المؤسسة لنموذجه المثالى من خلال وجهة نظر متحيزة . وذلك يعنى ان ماقمنا بتأسيسه ماهو إلا مقياس خاص وذاتى ، ومن ثم فنتاج القياس سوف يكون خالصا لا ينتمى الى موضوعية العلم فى شئ . يضاف الى ذلك اننا نتحيز حينما نفترض مقارنة المفردات الواقعية بالنماذج المثالية التى أسسناها خياليا لكى نحدد قدر الانحراف عن النموذج المثالى . وذلك على مايذهب البعض ليس سوى رياضة عقلية ، لأن مفردات الواقعية ينبغى أن تكون منحرفة عن نماذجها التالية ، مادام هذا الانحراف قد شارك فيه الباحث ذاته عند تجريده للنموذج المثالى (١٦١) .

(ب) انه اذا قلنا ان النموذج المثالى يتشكل من ابراز مايعتبره الباحث الخصائص أو الميول الأساسية للظاهرة موضع الدراسة ، فان هناك أخطاء يمكن أن تصاحب هذه العملية ، نذكر منها :

(١) ان الباحث قد يقع فى خطأ اعتبار التأسيس النظرى الذى تولى صياغته مقياسا أو اطارا ينبغى على المعطيات الواقعية أن تتكيف معه أو وفقا له .

(٢) ان الباحث قد يخلط بين التأسيس النظرى الذى جرد عن الحقيقة من ناحية وبين الحقيقة الواقعية من ناحية أخرى .

(٣) ان الباحث هو الذى يفترض العناصر التى تشكل القوى الحقيقية للنموذج .

ويؤكد زايلتن أنه اذا أمكن تجنب هذه المخاطر فان النموذج المثالى يمكن أن يصبح أداة فعالة نستطيع بواسطتها مواجهة الواقع وادراكه (١٦٢) .

(ج) أما الانتقاد الثالث فيذهب الى أنه مادام النموذج المثالى ليس سوى تحديد للعناصر الأساسية للظاهرة موضع الدراسة ، فان هذا التحديد أو التجريد غالبا مايتم بالنظر الى الحقيقة وهى فى حالتها الساكنة . ومن ثم فان ذلك يجعل النموذج المثالى غير قادر على استيعاب الجوانب الدينامية للظاهرة . بالاضافة الى ذلك فان الواقع متغير يطرح دائما متغيرات جديدة . ومن ثم فاننا نجد ان النموذج المثالى كاطار نظرى مجرد يتخلف عن الواقع المتطور بمجرد تأسيسه . ذلك يجعل الباحث فى حالة دائمة من التأسيس التجريدى الذى يتجاوزه الواقع دائما بما يجعل المسألة عبئا نظريا على الباحث ، بحيث تتضاءل قيمة الناتج كثيرا أمام تكاليفه .

(د) ويذهب الانتقاد الرابع الى ان النموذج المثالى يؤدى عادة الى عديد من التحيزات والأخطاء . فى اطار ذلك يذهب افرايم فيشوف Ephraim Fishoff الى أنه بمجرد تأسيس ماكس فيبر للنموذج المثالى للنظام الرأسمالى كما فعل ، مؤكدا على عقلانيته ، وجدته ، وطبيعته التقشفية ، فانه لم يواجه صعوبة كبيرة فى اكتشاف عناصر الالتقاء مع التأسيس النظرى للأخلاق البروتستنتية التى تميل فى ذات الاتجاه (١٦٣) . بالاضافة الى ذلك ، فقد تضمن منهج فيبر فى تأسيس النماذج منطقا انتقائيا ، فيما يتعلق بالمكونات الثقافية المتباينة من حيث أوزانها النسبية فى تشكيل الواقع موضع الاهتمام (١٦٤) .

بيد ان الانتقادات السابقة تتضمن قدرا عاليا من المبالغة التى تجعلها تتجاوز الحقيقة الى حد كبير . ففيما يتعلق بالانتقاد الأول والذى يدور معظمه حول التحيز الذى قد يصيب النموذج المثالى من جراء تدخل الباحث فى صياغته مما يفقده القدرة على تناول الحقيقة الواقعية بالدراسة والفهم . نرى ان النموذج المثالى لظاهرة معينة يركز عادة على عناصرها الأكثر أساسية كما أكدت ذلك دراسات عقلانية وعلمية كثيرة . وثانيا ان النموذج المثالى يستخدم لدراسة كل الظواهر التى قد تتجانس ، كليا أو جزئيا – مع الظاهرة التى جرد عنها ، وان لم تشارك هذه الظواهر فى تأسيسه ، ومن ثم يبتعد النموذج المثالى كثيرا عن أن يكون مجرد رياضة عقلية . هذا بالاضافة الى ان اشراك أى مقولة فى بناء النموذج المثالى لابد وان يتم وفقا لمحكين هما الكفاءة السببية ثم الامكانية الموضوعية ، وهى محكات تؤكد صفة الخارجية للنموذج المثالى بالنسبة للباحث والظاهرة موضع الدراسة ، مما يحقق انفصال الباحث عن الظاهرة موضع الدراسة .

أما فيما يتعلق بالانتقاد الثانى الذى يؤكد على امكانية ان يخلط الباحث بين التأسيس

النظرى من ناحية وبين الحقيقة الواقعية من ناحية أخرى ، أو فرض هذا النموذج على الحقيقة الواقعية . فان ذلك لا يعتبر عيبا فى النموذج المثالى كتأسيس نظرى ، وانما يرجع الى عدم كفاءة الباحث أو سوء استخدامه له .

وبالنسبة للانتقاد الثالث نرى أنه اذا كان يمكن ان نجرد النموذج المثالى بالنظر الى الظواهر الساكنة ، فاننا يمكننا أيضا تجريده عن الظواهر الدينامية ، الشاملة أو الجزئية ، وأن استخدام كل من ماركس وماكس فيبر للنموذج المثالى تم بالنظر الى الظواهر الثابتة والدينامية على السواء .

أما الانتقاد الرابع فنحن لانتفق فيه مع افرايم فيشوف ، حيث قام فيبر بتحديد قدر كبير من المكونات السببية للنظام الرأسمالى مقارنا اياها مع النظم الرأسمالية التى ظهرت فى اطار ديانات وحضارات أخرى ، كاليهودية ، والصينية والهندية ، محددا بناء على استخدامه للنموذج المثالى الانحرافات الواقعية لمختلف الرأسماليات عن النموذج المثالى ، وبالتالى أمكنه تحديد العوامل التى قد أدت دورا فى دعم ظهور الرأسمالية واستمرارها فى الحضارة الغربية ، وأيضا تلك التى أعاقت ظهورها واستمراريتها فى الحضارات الأخرى .